رواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج
" بين السرد التاريخي والسرد الروائي"

الدكتورة: نصيرة زوزو
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

نفتتح هذه الدراسة بالمقولة التالية : «الخيال عند الروائي مقدس والحقيقة مجال للانتهاك، ولا بد أن العكس صحيح عند المؤرخ ».[1]

يشكل التاريخ رصدا للحقيقة و الواقع، في حين تتغنى الرواية بالمتخيل الذي يعتبر محركها الأساس، و لربما أمكن التفريق بين الرواية و التاريخ عن طريق طغيان أحد هذين العنصرين (الواقع/المتخيل).

ولاشك أن العلاقة بين التاريخ و الرواية وطيدة، حتى إن بعض النقاد عرفوا الرواية بأنها: « قصة خيالية خيالا ذا طابع تاريخي عميق».[2]

وتأتي هذه العلاقة «من طبيعة الفن الروائي الذي ينهض على تصوير الواقعي والمعيش تصويرا فنيا تخييليا».[3]

وعلى الرغم من هذا فإن فروقات شاسعة بين عمل الروائي و المؤرخ، و «لا يستطيع المؤرخ –على الرغم من أنه يسرد أحداثا– أن يكون روائيا، كما أن الروائي لا يستطيع أن يكون مؤرخا، فكل واحد منهما يستقل بمهنته عن الآخر، و يختلفان في طريقة سرد الأحداث فإذا كان المؤرخ يلتزم "الحقيقة"، فيسرد الأحداث كما شاهدها أو كما رويت له، فإن الروائي يعتمد التخييل في سرد الأحداث، فيحذف و يضيف،و يقدم،و يؤخر.حتى الروائي الذي يكتب الرواية التاريخية ليس مؤرخا، و لو أراد ذلك لالتفت إلى كتابة التاريخ على طريقة المؤرخين». [4]

انطلاقا من هذا جاءت هذه الدراسة لتلقي الضوء على رواية جزائرية اتخذت من التاريخ مادة لنصها، و هي رواية "كتاب الأمير"، للمبدع الجزائري واسيني الأعرج محاولين الإجابة عن الأسئلة التالية: هل يندرج هذا العمل ضمن الرواية التاريخية أم لا؟ و هل استخدم

صاحبه فنيات الكتابة التاريخية أم خالفها؟ أم أنه عمل فني وتخييلي استُعين فيه بالتاريخ فقط؟

للإجابة عن هذه الأسئلة ارتأينا التوقف عند التوسطات الفنية التي استعان بها الروائي لبناء عالمه الروائي،على أننا نود بدءا تقديم ملخص للرواية.

1-ملخص الرواية:

تدور أحداث رواية "كتاب الأمير" عن الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري، و تحاول إعادة بناء التاريخ الصامت لهذا الرجل، الذي قام بمجابهة أولى موجات الاستعمار الفرنسي، ليقيم فترة طويلة في فرنسا قبل أن يتم ترحيله إلى المشرق العربي؛ تنفيذا لاتفاق عقده مع الحكومة الفرنسية التي تلكأت في تنفيذه طويلا.

تسعى الرواية أيضا إلى كشف جهود القس الفرنسي في الجزائر مونسينيور ديبوش ، الذي أرسل ذات مرة رسالة إلى الأمير؛ لاطلاق بعض السجناء، و بسبب إجابة الأمير لهذا الطلب ، ينذر القس حياته لإطلاق الأمير من منفاه بقصر أمبواز، و لإنقاذ شرف فرنسا من تهمة عدم الإيفاء بالعهود.

تفتح الرواية بابا واسعا لحوار الحضارات، إذ يتحاور الأمير المسلم و ديبوش المسيحي حول قضايا عدة، دون الوقوع في التعصب الديني، و تعكس مناقشاتهما و حوارهما خلفيتهما الروحية و اشتراكهما في هم واحد، هو النضال من أجل وقف نزيف الدماء. إنهما على الرغم من انتمائهما لدينين مختلفين إلا أنهما ينتميان إلى عقيدة واحدة هي عقيدة الأخوة الإنسانية و الموقف المبدئي.

تنتقل الرواية ضمن أبوابها و وقفاتها عند أكثر من محطة، فترصد بعامة تحولات حياة الأمير منذ أن بويع أميرا، ثم قيادته مهمة مقاومة الفرنسيين، و المحافظة على دولة تنتقل مع الخيام التي يحملها في حراكه المستمر في أرجاء الجزائر، بعدما دمَّر الفرنسيون عواصمه واحدة تلو الأخرى.

تبين الرواية عن شكل الدولة التي يريد الأمير إقامتها ، إلا أن الحظ لم يسعفه؛ إذ تكاثفت عناصر عديدة لإذابة الفكرة، بدءا بالقبائل المتمردة التي أخذت تخرج عن طوعه و تآزر المستعمر القوة الغالبة، إضافة إلى علاقاته المتوترة مع السلطان المغربي التي أنهت أمله. ولقد أدرك الأمير أيضا حقائق القوة التي لا تكفي لقهرها شعارات النضال ضد المستعمر الكافر، حين وقف أمام الجرّارات الحديثة و التقنيات الحربية المتطورة عاجزا.

تشابكت المسالك الصعبة أمام الأمير، و تعاونت عوامل عدة ضده، فقرر الاستسلام في الأخير للقوات الفرنسية، لتصور الرواية فيما بعد سنوات الظلم الخمس التي قضاها مسجونا بقصر أمبواز ينتظر الفرج و إطلاق سراحه ، بعد أن أدرك صعوبة الحياة و فكرة تبدّل الزمن و تغيّر العصر، و صعوبة نيل الحرية و العدو القريب يقف ضدك.

1- العتبات النصية:

2-1- العنوان الرئيس:

سنتوقف أولا عند العنوان؛ باعتباره المنطقة الأولى بصريا و دلاليا التي يقع فيها حدث التصادم بين القارئ و النص، فهو يشغل منطقة إستراتيجية في عملية تلقي النص، يعمل كشف أسرارها على إماطة اللثام عن منطقة التشكيل النصي للنص ذاته بنية و دلالة.

حملت الرواية عنوانين رئيس و فرعي،"كتاب الأمير" و "مسالك أبواب الحديد"، فالعنوان الرئيس ورد تركيبا إضافيا، يتلقى خلاله القارئ أول دفقة شعورية (كتاب)، اللفظة النكرة التي لا تشير إلى شيء محدد، ثم عرفت بالإضافة، فوردت كلمة أخرى (الأمير)، التي جيء بها لتنوب عن (أل) التعريف التي حُذفت في الاسم الذي أضيفت إليه.

قد لا يلمس القارئ سمة الشاعرية في عنوان (كتاب الأمير)، و التي تطبع العناوين عادة، بل إنه يحمل روح البحث العلمي و نفحاته أكثر من روح الإبداع.

لكن على الرغم من ذلك فإن الشخصية التاريخية لا تتحدد بالاسم في هذا العنوان المركب، كما هو حال عناوين النصوص التاريخية البحتة، مثل ما نعثر عليه في عناوين مثل الحجاج بن يوسف أو أبو مسلم الخرساني أو صلاح الدين الأيوبي لجورجي زيدان.و بهذا خالفت هذه الرواية منذ عتبتها الأولى تلك المرجعية المباشرة التي تحيل عليها عناوين الروايات التاريخية.

2-2- العنوان الفرعي:

ينطبق ما قلناه سابقا على العنوان الفرعي، الذي يشي بغموض و ضبابية، تستدعي التوقف مطولا؛ لبيان دلالته الحقة و علاقته بالمتن الروائي، و هو بهذا أيضا ينزاح عن سمة المرجعية التي تتسم بها الرواية التاريخية.

لقد صرف الأمير عبد القادر –وفق ما قدمته أحداث القصة – سنوات عديدة من حياته و عمره في سبيل تحقيق حلم الوحدة و التحرر من ربقة الاستعمار و بناء دولة حديثة.

لقد خاض الأمير في سبيل تحقيق الوحدة و الانتصار حروبا طويلة مع القبائل تارة، و مع القوات الفرنسية تارة أخرى؛ أي إن الدروب التي سلكها كانت صعبة، و الأشواك التي وطئها كانت قاسية، و هو في كل هذا كان جلودا متيقظا في الوقت نفسه.

لقد أدرك الأمير أن الزمن تغير و العصر تبدل. يقول مخاطبا صهره مصطفى بن التهامي: « العالم يا سي مصطفى تغير و تغير كثيرا و نحن على حافة قرن كل شيء فيه تبدى لنا على حقيقته. عندما كان الناس يحفرون الأرض و يستخرجون التربة و يحولونها إلى قطارات بخارية و سفن حربية و سيارات و قوانين لتسيير البلاد كنا نحن غارقين في اليقينيات التي ظهر لنا فيما بعد ضعفها، و أننا كنا نعيش عصرا انسحب و انتهى(..) الوقت يسير بسرعة ساحقة و أخاف أن لا يترك لنا الفرصة للملمة أشلائنا من الصعب على إنسان يأتي في مفترق عصر يذهب و آخر يجيء أن يسير بشكل صحيح إذا لم يكن يملك قدرة على فهم الاثنين في الوقت نفسه».[5]

إن لقوله الأخير ارتباط وثيق بالعنوان الفرعي للرواية، إذ تتكرر منقولات مشابهة للمقولة الأخيرة في مواضع متعددة من متن الرواية، التي تحاول أن تلقى أضواء كاشفة على فترة كانت انتقالا عالميا بين عصرين، و لربما هي تسقط كذلك على حاضر العالم العربي و الإسلامي الراهن.

على الرغم من أن "كتاب الأمير" تقطر بالصبغة التاريخية، إلا أن صاحبها يطوع ذاك التاريخ بحسب ما يرتضيه؛ أي إنه يستعين بالتاريخ ليعبر عن رؤاه و ليسقط ذاك الماضي على حاضرنا الراهن و واقعنا المعيش.

2-3- العناوين الداخلية:

لقد ارتضى "واسيني" تقسيم روايته إلى أبواب ثلاثة، يحمل كل واحد منها عنوانا خاصا (باب المحن الأولى-باب أقواس الحكمة-باب المسالك و المهالك) لتتكرر بعده لفظة الأميرالية التي يتفرع عنها عناوين فرعية أو وقفات، و قد حملت كل وقفة عنوانا معينا كما جاءت متسلسلة، كما هو حال عنوان الأميرالية؛ للدلالة على الالتحام الوثيق بين عناوين الرواية ككل، و نذكر من عناوين الوقفات: (مرايا الأوهام الضائعة- مدارات اليقين- منزلة الابتلاء الكبير- مرايا المهاوي الكبرى- ضيق المعابر- سلطان المجاهدة- فتنة الأحوال الزائلة).

حال هذه العناوين الداخلية كحال العنوانين الرئيس و الفرعي للرواية، إذ تسيطر عليها صفة الضبابية و الايحاء، و هي تحتاج إلى قارىء بارع يستطيع فك طلاسمها.و الرواية بهذا الشكل تقضي أيضا على الصيغة المرجعية التي كنا قد أشرنا إليها آنفا.

إن عنوانا مثل (مرايا الأوهام الضائعة) يحمل من الغموض الكثير. فالمرآة تكشف دواخل الشخصية و تعري حالتها النفسية، إنها انعكاس للشخصية في بعدها الباطن.

تكتنز صفحات هذه العتبة بمحاورات طويلة تمت بين شخوص فرنسية خلال افتتاح الغرفة النيابية لدورتها الخاصة و بحثها في قضية الإفراج عن الأمير من سجنه بأمبواز. ركب بعد هذا ديبوش القطار، و هو يحاول عبثا نسيان تفاصيل هذه الجلسة، و قد نزلت الظلمة على قلبه و محيطه عاكسة صورة الحكومة الفرنسية و معرية للواقع و مظهرة له على حقيقته، هي المرايا –إذن– المشار إليها في العتبة، و التي تعقبها الوقفة الثانية المعنونة بـ (منزلة الابتلاء الكبير) ، وتحمل أحداث هذا الفصل من الابتلاءات و المجاهدات ما يكفي لوضع العنوان السابق، و كما يبتلي الله العاصي لعصيانه، فإن أكثر الاختبارات هي لعباده الصالحين الصابرين على قضائه و قدره مثل ما كانت عليه حياة الأمير التي كانت سلسلة من الاختبارات الربانية.

2- الزمن:

يعد الزمن ركيزة أساسا في الرواية، إذ « يُمثل روحها المتفتقة، و قلبها النابض فبدون عنصر الزمن تفقد الأحداث حدثيتها و حركيتها».[6]

يتشكل الخطاب التاريخي في الرواية من خلال مؤشرات لغوية ترد على لسان الراوي أو شخصياته، توحي بوضع أحداثها في سياق تاريخي مرجعي.[7]

للزمن في "كتاب الامير" حضور متميز، بل إنها تفتتح سردها بالمنقول التالي: « 28 جويلية 1864 فجرا. الرطوبة الثقيلة و الحرارة التي تبدأ في وقت مبكر. الساعة تحاذي الخامسة».[8]

تمتاز هذه الرواية بمدخل زماني محض يولجنا إلى أحداث القصة، و يمتاز هذا المدخل بتحديد دقيق للفترة الزمنية (اليوم– الشهر– السنة – الوقت بدقة "فجرا")، و في هذا إشادة بمبدأ الزمن و دوره العظيم الذي ستتبني عليه الرواية.

تعمد هذه الرواية إلى العمل بالطريقة عينها، إذ تعمل على تحديد الزمن بدقة بداية كل باب أو كل وقفة؛ في تنبيه للقارئ إلى أهميته القصوى في سير الأحداث.

تضم الرواية مقاطع عديدة دُقق كثيرا في تحديد زمن أحداثها التاريخية؛ حرصا على الحقيقة و تقديمها دون زيف أو مجاملة، و لعل تحديد معالم الزمان أهم ركائز الخطاب التاريخي في وثائقيته المألوفة، سواء أكان المسرود تاريخا عاما أم تاريخ الأنا الفردية المعروف بالسيرة الذاتية.

تراعي الرواية التاريخية التسلسل الزمني في عرض الأحداث، و قد يفهم القارئء حين يقرأ كلمة "كتاب" في العنوان الرئيس أن الرواية ستعمل على أساس ذلك التدرج و التسلسل المنطقي لأحداث القصة، فالحكاية تحمل بداية و وسط و نهاية، إذ إن هناك تقسيما محكما يراعي فيه التتبع التاريخي و تطور الأحداث، و كذلك شأن التقسيم الأكاديمي في البحث التاريخي.

على أن هذا الاعتقاد سيتلاشى بتتبع الأحداث، حين تعمل رواية "كتاب الأمير" على كسر هذه النمطية، بل إن أحداث الرواية ككل تنطلق في عملية السرد بعد نهاية أحداثها؛ أي إنها تعتمد على عملية الاسترجاع في حوادث قصتها، كما أنها تستعين بتقنياته مثل الحذف و المشهد و التلخيص في مواطن كثيرة.

و سنستشهد بما قلناه في افتتاحية الوقفة الأولى، حيث يقول الراوي: « 17 جانفي 1848. نزع مونسينيور ديبوش الورقة من الرزنامة بنوع من الانفعال و هم برميها ثم عدل عن الفكرة بشكل آلي قبل أن يدفنها بين بقية الأوراق الأخرى التي كانت تملأ الطاولة. أغمس قلمه في الحبر فشعر بخشونة ما».[9]

و يقول بعد هذا في وقفة مدارات اليقين: « 7 ماي 1833. الربيع لا يحمل دائما الأخبار السارة». [10]

تختص رواية " كتاب الأمير" بهوس تحديد الزمان، إذ تتميز مداخل أبوابها و وقفاتها و حتى بين ثنايا كل وقفة بذاك.و لا يمكن في هذا المقام الإشارة إليها جميعا، إذ اكتفينا بذكر أنموذجين فحسب؛ لندلل على أن الرواية تعمل على كسر التسلسل الطبيعي للأحداث، و هي بذلك تخالف خطية زمن الروايات التاريخية.

4- طبيعة الراوي المؤرخ للأحداث:

يجد القارئ نفسه في رواية "كتاب الأمير" أمام راويين يستلمان عملية القص، و تفتح الراوية حديثها بكلام شخصية لا نعرف موقعها بالضبط في ثنايا الحكاية، تفتتح سردها بالحديث عن جون موبي خادم القس مونسينيور ديبوش مع أول فقرة في المتن، ثم يواصل

الراوي سرد التفاصيل: جون موبي الذي ركب قارب بحار مالطي و معه تربة قبر ديبوش، يحاول على نثرها في بحر الجزائر كما أوصاه سيده، و ينتظر في الوقت نفسه وصول رفات ديبوش؛ لدفنها في الأرض التي أحبها.

تنتهي المهمة الأولى للراوي الأول (الراوي المحايد، أو الراوي غير المشارك في الأحداث) بعد صفحات قليلة (من 9 إلى 20)، حيث يستلم جون موبي، الذي سنعتبره الراوي الثاني زمام العملية السردية؛ لتتمة الحكاية، التي تتعلق بعامة بقصة الأمير عبد القادر و مقاومته الاستعمار الفرنسي و سجنه بأمبواز، و يقف إلى جنبها حكاية ديبوش سيد جون موبي.

يختفي صوت الراوي الأول مع آخر عبارة تقرأ في الصفحة العشرين، أي إن ما سيأتي من صفحات ستتكفل ذاكرة جون موبي بها، حيث يقوم جون بقيادة عملية السرد منذ بداياتها، و كل ذلك من على قارب وسط البحر و أمام الصياد المالطي، الذي سيتابع باهتمام تفاصيل القصة، كما سيتابعها القارئ.

على أن مهمة الراوي الأول لا تنتهي هنا، إذ يطل علينا صوته بين ثنايا صفحات الرواية، و في بداية بعض العناوين الفرعية. يعود إلى الزمن الحاضر و يعاود الحديث عن جون موبي و رحلته على قارب الصياد، ضمن الصفحات التالية: الأميرالية 2 (من 201 إلى 207)، و الأميرالية 3 (من 431 إلى 436)، و الأميرالية 4 (من 546 إلى 553)، ليغرق جون مرة أخرى في بحر ذكرياته و يستلم قيادة سفينة توهان الذاكرة من جديد.

أي إن هناك راويان في رواية "كتاب الأمير" يتداولان عملية التبليغ، غير أن حظ جون موبي هو الأكبر، فهو من سيتلقف الدور الأعظم في السرد.و بعبارة أخرى نقول: إن رواية "كتاب الأمير"تضم راويان أحدهما خارجي و حيادي لا علاقة له بأحداث القصة، في حين كان الثاني شخصية مشاركة في خضم الأحداث.

لقد خرجت هذه الرواية إذن عن النمط الكلاسيكي المألوف في الروايات التاريخية، التي يستأثر فيها الراوي العليم بزمام الأمور، حيث يتكفل بسرد مجريات عملية القص منذ بدايتها إلى نهايتها، لتترك الأمور إلى الراوي موبي المشارك في الأحداث، و الذي نعيش معه لحظة بلحظة أحداث الرواية و مجرياتها.

5- صيغ الزمن في الرواية:

من أهم مميزات الرواية التاريخية طغيان صيغة الزمن الماضي، مثل مانجده في المقطوعة التالية من رواية "غادة كربلاء" لجورجي زيدان: «عرب الحجاز قبل الاسلام كانت تجمعهم قبيلة قريش.و كانت تضم فريقين: بنو أمية و بنو هاشم. و كان بنو أمية أكثر عددا(..) فخلا الجو في مكة لبني أمية(..)فلما فاز المسلمون في غزواتهم و هموا بفتح مكة سنة 7هـ كان أبو سفيان سيد قريش فيها.. ».[11]

و على الرغم من أن "كتاب الأمير" تنطلق في سرد أحداثها بعد انتهائها كما تحدثنا في العنصر السابق، إلا أن راويها جون موبي و الذي يعود بدوره إلى سرد أحداث ماضية أيضا، يترك المجال لشخصياته كي تتحاور و تعبر عن رؤاها، و بذلك تعتري الرواية أزمنة متعددة، أبرزها الزمن الحاضر الذي يحس القارئ خلاله بمعايشة الأحداث و كأنها حدثت في الزمن الحاضر، في حين أنها تعود إلى زمن ماضي أحدهما قريب و الآخر بعيد.

و للننظر مثلا إلى هذا المقطع الذي تفتتح به الرواية أحداثها: « الرطوبة الثقيلة و الحرارة التي تبدأ في وقت مبكر. الساعة تحاذي الخامسة. لا شيء إلا الصمت و الظلمة و رائحة القهوة القادمة من الجهة الأخرى من الميناء. ممزوجة بهبات آخر موجة تكسرت على حافة الأميرالية التي كانت تبدو كظلال داكنة هاربة نحو شط البحر ليغيب جزؤها الأمامي تحت كتل الضباب التي بدأت تلف المكان شيئا فشيئا».[12]

6- الشخصية الروائية و تعدد الضمائر:

تحكي رواية "كتاب الأمير" قصة الأمير عبد القادر الجزائري، الذي كافح القوات الفرنسية الغاشمة. إنها شخصية تاريخية مرجعية تحيل على هذا الشخص العظيم الذي لاقى عقبات كثيرة في سبيل بناء دولة حديثة، و مجابهة أعتى القوى الاستعمارية آنذاك.

عادة ما تقدم الشخصية في الروايات التاريخية بوساطة الراوي العليم و باستخدام ضمير الغائب فقط، إلا أن "كتاب الامير" نوعت في الضمائر التي قدمت بوساطتها الشخصية التاريخية، كان أكثرها كثافة و حضورا ضمير المتكلم، انطلاقا من تكثيف الرواية من الحوارات التي تسمح بتقديم الشخوص الروائية لنفسها، و محاورتها لبعضها لبعض.

في الأخير يمكن القول: إن هذه الرواية حاولت بحق إنصاف هذه الشخصية التاريخية(الامير عبد القادر)، التي لم تحظ في السرد الروائي بمثل ما حظيت به في السرد التاريخي، و عمدت على وجه الخصوص إلى الإشادة به و بكفاحه المرير ضد الغزاة

الفرنسيين، الذين تمكنوا من إخضاعه في نهاية المطاف؛ لرقي إمكاناتهم الحربية من جهة، و لتخاذل القبائل العربية في نصرته من جهة أخرى، و هما العنصران الرئيسان اللذان تحاول الرواية إثارتهما، و التركيز عليهما في أكثر من موضع.

وإن كانت للرواية التاريخية خصوصيتها، فإن رواية"كتاب الامير" تكسر تلك النمطية التي سارت وفقها، و حاولت الخروج عن تقاليدها المتوارثة، لتكون لنفسها صورة العمل الروائي بكل خصوصياته المعاصرة، لا ذاك التشكيل الذي عرفته الروايات التاريخية. و هي بهذا البناء لا يمكن اعتبارها رواية تاريخية بقدر ما هي رواية تخييلية تستلهم التاريخ و توظفه بطريقة جمالية تنأى بها عن سلطة التاريخ.

الهوامش:

(1) طارق علي: تأملات في الرواية والتاريخ، دار الكتب القطرية، (د.ط)، 2005، ص30.

(2) محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،(د.ط)، 2002، ص 101.

(3) المرجع نفسه، و الصفحة نفسها.

(4) المرجع نفسه، و الصفحة نفسها.

(5) واسيني الأعرج، كتاب الأمير"مسالك أبواب الحديد"، منشورات الفضاء الحر، الجزائر،ط1، 2004، ص 520، 521.

(6) إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، " تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي"، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط1، 2005، ص 286.

(7) محمد أحمد مسعدي، الخطاب و دوره في تشكيل الشخصية الروائية، مجلة علامات في النقد، ج 40، م 10، جدة، 2001، ص 460.

(8) الرواية، ص 9.

(9) المصدر نفسه، ص 22.

(10) المصدر نفسه، ص 93.

(11) جورجي زيدان، غادة كربلاء،دار الهلال،، مصر،(د.ط)،2004، ص 7.

(12) الرواية، ص 9.